كتاب

حوار مع صديقي الملحد

عرض ومناقشة

إعداد

معتز عبد الرحمن محمود

مقدمة

سبب اختيار الكتاب

يعد كتاب (حوار مع صديقي الملحد) على قدمه وصغره أحد الكتب الشهيرة التي يكثر ذكرها في هذا المجال ، وتنبع أهميته في رأيي – إيجابا وسلبا – من عدة أمور:

1- شهرة كاتبه وهو الدكتور مصطفى محمود رحمه الله والذي تمثل كتبه مكونا أساسيا في تثقيف جيل الشباب الحالي – مواليد السبعينات والثمانينات – في مصر على الأقل، إلى حد قد يجعل البعض يرشح كتبا له حسب موضوعها وإن لم يقرأها، ومنها هذا الكتاب ، فعادة إذا ما تحدث أحد عن احتياجه لمادة تخص الرد على الإلحاد أجد الطرف الآخر يرشح هذا الكتاب على رأي القائمة وإن لم يقرأه.

2- تخصص كاتبه في العلوم التجريبية في الأساس، فعادة لا يلتفت الشباب لما يكتبه المتخصصون الشرعيون في مسائل الإلحاد لاعتماده على الأدلة الشرعية بشكل رئيسي وضعف الجانب التجريبي والعقلي فيها ، ولكن في حالة الدكتور مصطفى محمود الأمر يختلف بسبب تخصصه وقدرته على الرد على الأطروحات التجريبية التي يطرحها الملحدون والذين يفتتن البعض بكلامهم فقط بحكم التخصص والدرجة العلمية وإن لم يلتزموا منهجهم العلمي في الطرح.

3- مرور الدكتور رحمه الله بتجربة تشكك وتخبط تجعل أطروحاته تمثل أهمية أكبر عند القراء بخلاف نظرتهم إلى من لم يمروا بهذه التجربة إذ يسهل وصفهم بالتقليد، أما الدكتور فلا يمكن وصفه بهذا ، وهذا معيار خاطيء بالتأكيد ولكنه واقعيا ذو تأثير.

4- وأخيرا أنه رغم كل العناصر السابقة فالكتاب لم يلق عند المؤمنين أنفسهم إجماعا على جودته حتى أنني قرأت الكثير من التعليقات والكتابات عنه تصفه بأنه كفيل بأن يزيد الملحد إلحادا والشاك شكا والمتسائل تساؤلا ، وأقر أنني بسبب مثل هذه المعارضات الحادة المتكررة صرت أسوّف قراءته لفترة طويلة حتى ألتحقت بدورة صناعة المحاور وأتممت مستوياتها الخمس ، لا سيما أنني قبل هذه الدورة كانت معلوماتي عن عالم سجالات الإيمان والإلحاد تقترب من الصفر كما أنه لم يكن لدي مراجع بشرية متخصصة في هذا الأمر كي أرجع إليها بالسؤال إن وجدت في الكتاب أسئلة لم أسمعها من قبل مع أجوبة لم ترو عطش السؤال.

هنا كان ينبغي التوقف مع هذا الكتاب المهم بنفسي وبناء على ما تعلمته ، لأدرس وأعرف هل الثناء الكبير الذي يلقاه يتعلق حقا بقوة محتواه من الدرجة الأولى أم بكاتبه وتاريخه ، وهل النقد الذي يلقاه أيضا يتعلق بثغرات في محتواه أم لأسباب أخرى، ولأكوّن رأيا مستقلا عنه قد يتفق ويختلف مع أطروحات الفريقين في آن واحد.

عرض ومناقشة

فيما يلي سأعرض باختصار الأسئلة التي صاغها المؤلف على لسان محاوره الافتراضي – بجانبها حرف (س) – وتحتها الأفكار الرئيسية التي اعتمد عليها المؤلف في الرد – بجانبها حرف (ج) – ثم تعليقي عليها ومواطن القوة والضعف فيها – بجانبها حرف (ت).

وجدير بالذكر أن هذه الأسئلة تمثل الأغلبية العظمى مما جاء في الكتاب وتمثل الأسئلة الأكثر أهمية، ولم أتجاهل سوى عدد قليل منها وهي الأقل أهمية حتى لا يطول البحث أكثر من الحد المطلوب، كما جاء ذكر هذه الأسئلة مرتبا حسب ترتيب ذكرها في الكتاب وليس بحسب الأهمية أو التأثير.

س	الطعن على دليل السببية بسؤال من خلق الله وأنه من لوازم دليل السببية الذي يستخدمه المؤمنون لإثبات وجود الله
ج	1- تناقض السؤال من نسبة الخلق للخالق ثم السؤال عمن خلق الخالق. 2- قانون السببية مخلوق ولا يتصور سريان القانون المخلوق على خالقه. 3- محدودية مجال عمل العقل البشري في الجزئيات والظواهر وعجزه عن إدراك الماهيات المجردة كالوجود الإلهي (استشهد بنقل عن عمانويل كانت). 4- من لوازم هذا السؤال الوقوع في التسلسل اللا نهائي وهو غير منطقي (استشهد بنقل عن أرسطو).
ت	كشف المؤلف عن المغالطات الموجودة في هذا السؤال الشهير، من كونه يستلزم التسلسل الممتنع عقلا ، وعن احتوائه على التناقض في وصف الخالق بالمخلوق في آن واحد، وكذلك امتناع سريان القانون المخلوق على خالقه، نافيا بذلك وصف العقلانية عن هذا السؤال وعن اعتباره دليلا عقليا على عدم وجود الله منبها على مسألة محدودية العقل البشري في الإدراك، وإجمالا أرى أن الرد كان مناسبا ووافيا في حدود السؤال المطروح من جانب الملحد (التخيلي) الذي افترضه الكاتب، وإن كان الاكتفاء بالرد في حدود هذه النقطة فقط حول السببية يحد من الإفادة المرجوة في هذه النقطة المفصلية من جدال المؤمنين والملحدين، فهي ليست الأطروحة الوحيدة لهم في مجال نفي المباديء العقلية الضرورية.

س	لماذا إله واحد وليس آلهة متعددة
ج	1- اتحاد خامة الخلق في الكون كله بين المخلوقات المختلفة. 2- الكامل لا يحتاج لتعدد إنما يتعدد الناقصون. 3- لو تعدد الإلهة لاختلفوا.
ت	في ظل كون الكتاب موجه من الدرجة الأولى إلى الإلحاد، ففي رأيي أن هذا السؤال فيه قفز استدلالي، فمناقشة الوحدانية تأتي تالية للتسليم بوجود خالق أصلا واستحالة أن يكون الكون بلا خالق ، فإذا حصل هذا التسليم يتم الانتقال إلى معرفة هذا الخالق وهل هو واحد أم أكثر ، وما صفات الخالق الواحد، وكان ينبغي على المؤلف التنبيه إلى هذا القفز والتغبيش، ولكن الاستدلال على الوحدانية في العموم كان موفقا في رأيي.

س	كيف ينشغل الرب بالتفاصيل والتوافه حتى العلم بسقوط الورقة واختيار النحل لبيوته وحمل الأنثى ووضعها والتعثر في حفرة وغير ذلك.
ج	1- هل من الربوبية أن يترك الخالق الكون بلا تدبير يأكل بعضه بعضا؟! بل هذه الرعاية من لوازم الربوبية وكمالها. 2- نسبية ما يراه السائل تافها، فالذبابة قد تغير مصير جيوش وقادة ومعارك، بينما تحدث مقدمات خطيرة ولا يترتب عليها نتائج تذكر. 3- لا ينبغي للمخلوق الضعيف أن يتصور نفسه وصيا على من خلق كل هذا الكون بعلم ودقة وحكمة يحدد ما ينبغي له فعله وما لا ينبغي ، فالتدبير يتطلب كمال العلم وهو غير موجود إلا لدى الخالق تعالى.
ت	كان الرد جيدا في المجمل ولكن ربما ازداد قوة إذا اتخذ المؤلف رحمه الله هذا النقطة كانطلاقة لمناقشة الدليل الثاني على وجود الله وهو وجود الإتقان والإحكام وعدم البدء من حيث انتهى السائل، لا سيما أن الأمثلة التي وردت في السؤال لا توصف كلها – ولو ظاهريا – بالبساطة، بل بها من التعقيد ما يدل على استحالة حدوثها تلقائيا، فهي دليل في ذاتها على وجود الله تعالى ، وافتراض كون بعضها تافها في نظر المخالف فهذا أقصى ما يمكن أن يتعلق به هو صفات الخالق وليس وجوده ، لأن البسيط والمعقد والمهم وغير المهم – أيا كان ميزان تحديد الأهمية – لا يمكن أن يوجد بغير خالق، وعمليا ما لا يمكنه الوجود بدون خالق لا يمكنه الاستمرار دون رعايته ثم يأتي بقية رد المؤلف كما هو بعد ذلك.

س	لماذا يحاسبني الله وقد قدر علي أفعالي، وإذا كنت حرا أليس هذا تعدد مشيئات ينافي التوحيد.
ج	1- الحساب على التكليف وما دون ذلك من الأمور المقدرة الخارجة عن إرادة الإنسان لا حساب عليها. 2- الأفعال معلومة عند الله في كتابه وليس مقدورة بالإكراه. 3- الحرية في الفعل حقيقية ومعلومة بالشعور الفطري (وضرب أمثلة) 4- الحرية الإنسانية لا تعلو عن المشيئة الإلهية لأن الله هو الذي شاء للإنسان أن يكون حرا مع قدرته أن يجعله مجبورا، فالعمل الفاسد يخالف ما يرضي الله لا يخالف مشيئته. 5- القدر لا يجري على الإنسان بخلاف طبائعه ، بل الله تعالى يقضي ويقدر على مقتضى النية والقلب (وذكر آيات). 6- من دلائل حرية الإنسان عدم القدرة على توقع ما يفعله أحدهم غدا بخلاف أجرام الكون التي تجري على نمط واحد، وثبوت فشل الحتميات كحتمية ماركس رغم أنها من المفترض قد بنيت على قراءة للتاريخ.
ت	رد المؤلف رحمه الله جيد ونافع وضمّن فيه جل الوجوه المختلفة التي تتعلق بهذا التساؤل، وهذه من نقاط القوة في الكتاب ، وربما ازدادت قوة لو أشار إلى أن عظمة خلق الكون تدل بالضرورة أن خالقه إله واسع الحكمة ، وبمقارنة عقولنا إلى الخلق يمكن إدراك استحالة إحاطتها بحكمة الخالق والمقدر في كل الأمور، فالتسليم بالعجز عن إدراك الحكمة في كل الأمور والمقادير مبني على موقف عقلاني وليس ديني وحسب.

س	لماذا خلق الله الشر؟
ج	1- إن الله لم يأمر بالشر وإنما سمح به لحكمة وهي خلقنا أحرارا والحرية تقتضي وجود الخطأ والصواب. 2- أن الخير هو القاعدة والشر هو الاستثناء. 3- أن كل شر له وجه خير ولا يوجد شر محض. 4- لا يعرف الشيء إلا بوجود ضده، كالجمال والقبح ، والعدل والظلم. 5- المشقات والآلام تفرز الناس ومعادنهم. 6- أن الدنيا كلها فصل قصير في الحياة إذا ضممنا إليها الآخرة التي فيها الجزاء على الخير والشر. 7- إذا تحقق الكمال المطلق فهو لا يتعدد ، والكمال المطلق لله وحده. 8- ماذا فعل المتكلمون ليستحقوا هذا الكمال؟
ت	أجاد المؤلف رحمه الله مناقشة هذا السؤال المحوري وأحسن بتضمينه في الكتاب ، إلا أن ثمة تحفظ على العنصرين الأخيرين اللذين استخدمهما المؤلف في الرد، إذ قال في تفصيل النقطة السابعة (هل يريد أن يعيش حياة بلا موت ، بلا مرض ، بلا شيخوخة، بلا نقص ، بلا عجز، بلا قيود بلا أحزان بلا آلام؟ هل يطلب كمالا مطلقا؟ ولكن الكمال المطلق لله وحده، والكامل واحد لا يتعدد، ولماذا يتعدد؟ وماذا ينقصه ليجده في واحد آخر غيره؟ معنى هذا أن صاحبنا لن يرضيه إلا أن يكون هو الله ذاته، وهو التطاول بعينه) انتهى. يأتي التحفظ على هذا الاستدلال في كون كل ما ذكره المؤلف من أمنيات متحقق تماما في الآخرة في جنات النعيم وهو لا يعارض كمال الله تعالى ولا يصنع من المتنعم في الجنة إلها أو كاملا كمالا مطلقا – والعياذ بالله – فالاستدلال في غيره محله ، وإنما ما يمكن قوله في مثل هذا هو ما أورده الكاتب نفسه في النقطة السادسة وهي أن الدنيا دار عمل واختبار وليست دار جزاء ، ولا يتناسب مع الاختبار انتفاء كل هذه النواقص. وكذلك في النقطة الثامنة ، وإن كان المؤلف رحمه الله صرح بأنه يذكرها سخرية من الذين يريدونها جنة ، ففي رأيي أن الاستدلال بعدم استحقاق الكمال تبعا لنقص العمل فيه خروج عن النقطة المستدل عليها ، وتناقض مع النقطة السادسة من أن الدنيا دار عمل لا دار جزاء على العمل ، فوجود النواقص فيها ليس ناتجا عن تقصير بني آدم بالأساس وإن كانت ذنوبهم قد تزيدها بالطبع وتحرمهم التوفيق كما جاء في بعض النصوص الشرعية، ولكن وجودها أصلا أمر مقدر لحكمة من الخالق تبارك وتعالى تناسب طبيعة ودور هذه المرحلة. ولعل من نقاط القوة التي كان من الممكن أن تثري الرد أكثر مسألة أن التسليم بوجود مفاهيم مطلقة للخير والشر تستدعي التسليم بوجود إله خالق أوجد هذا الإطلاق في النفوس والفطر، فإذا نفى المتكلم وجود الله فلم يعد هناك معنى لمسمى الخير المطلق والشر المطلق.

س	ما ذنب الذي لم يصله القرآن؟
ج	1- من تم ذكرهم في القرآن الكريم ليسوا كل الأنبياء والرسل. 2- الحكمة الإلهية قد تقتضي إنذار إنسان وإعذار الآخر حسب حاله لاختلاف درجة التكليف بين الحالتين، كما تكون المعجزات الظاهرة القوية سببا في تشديد العذاب على من كذب بها. 3- دراسة أديان ومعتقدات الكثير من المنعزلين يثبت أثرا لنبوات سابقة. 4- وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا.
ت	تعد هذه شبهة متعلقة بمسألة النبوة وثبوتها أكثر منها متعلقة بوجود الله ، والعناوين المذكورة عاليا والتي تكلم تحتها المؤلف للرد على هذه الشبهة جيدة وشاملة ، إلا إن هناك بعض الملحوظات جاءت في سياق رد المؤلف. ففي سياق التعليق على النقطة الأولى قال (وقد يكون الوحي كتابا يلقيه جبريل، وقد يكون نورا يلقيه الله في قلب العبد، وقد يكون انشراحا في الصدر ، وقد يكون حكمة، قد يكون حقيقة وقد يكون فهما وقد يكون خشوعا ورهبة وتقوى... إلخ) انتهى، أرى أن المؤلف رحمه الله هنا قد خلط بين المعنى الاصطلاحي للوحي والبلاغ وهو المقصود في السؤال والذي به تقوم الحجة على العباد ، وبين المعاني اللغوية المحتملة لكلمة وحي والتي ليس بالضرورة تعني قيام الحجة والبلاغ، وهذه قد تكون ثغرة يدخل منها المخالف لإبطال كلام المؤلف سواء كان المخالف هذا ملحدا أو ربوبيا أو حتى من أصحاب البدع والأهواء، فالوحي الذي تقوم به الحجة على العباد هو التبليغ والتكليف عن طريق الأنبياء ، أما الإلهامات الأخرى المذكورة فقد توصف بالوحي لغة ولكنها ليست التي تقوم بها الحجة وليست المقصودة في السؤال. وكذلك إطلاقه لبعض الأمور كحقائق بلا حجة ودليل في موطن مناظرة ومحاجة كقوله عن تفاوت التكليف والرحمة (وعلم الله بنا وبقلوبنا يمتد إلى ما قبل نزولنا في الأرحام حينما كنا عنده نفوسا نورانية حول عرشه ، فمنا من التف حول نوره، ومنا من انصرف عنه مستمتعا بالملكوت، وغافلا عن جمال خالقه ، فاستحق الرتبة الدنيا من ذلك اليوم وسبق عليه والقول.. هذا كلام أهل المشاهدة) انتهى. ، فاجتمع هنا الاستدلال بدليل خبري على ما لا يؤمن بالاستدلال الخبري مع كون الدليل الخبري نفسه ليس ثابتا وإنما كلام متصوف لم يرد في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة. وكذلك تعقيبه (والذي يسألني لماذا خلق الله الخنزير خنزيرا ، لا أملك إلا أن أجيبه بأن الله اختار له ثوبا خنزيريا لأن نفسه خنزيرية، وأن خلقه هكذا حق وعدل..) انتهى، فالمثال المستخدم بعيد عن سياق الموضوع ، فالخنزير غير مكلف ، وصفاته لا تنقص منه هو بل تنقص ممن يتشبه به من البشر المكلفين، فهو خلق بهذه الصفات وكذلك سائر المخلوقات بعلم وحكمة وليس عقابا واستحقاقا ، والله أعلم.

س	لماذا يعذبنا الله وهو الرحمن الرحيم عذابا غير محدود بسبب ذنب محدود ونحن أصلا تافهون أمام عظمته؟
ج	1- الإنسان ليس مخلوقا تافها وإنما مكرما ، وليس الأمر بمقارنة حجمه بالكون. 2- الذنب غير محدود بالموت بناء على قوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) 3- النعيم والعذاب معنوي وحسي، والنار رحمة بالجاهل تأديبا وتعليما كما أن الجنة رحمة بالمؤمن فضلا وكرما. 4- اقتضاء العدل الإلهي لعدم مساواة المحسن مع المسيئ. 5- الاستدلال بوجود عذابات آلام في الدنيا على إمكانية العذاب في الآخرة.
ت	هذه النقطة من النقاط التي وقع فيها اختلاط شديد بين إجادة الرد في بعض النقاط كالأولى والرابعة وما يمكن أن أسميه افتعال ثغرات لصالح المخالف دون داع في النقاط الأخرى، ففي النقطة الأولى جاء ضبط الميزان في مسألة تقييم الإنسان وتكريمه وعدم الاحتجاج بما وصفوه بتفاهة الإنسان على عدم تعذيبه على ذنوبه ، وفي الرابعة ذكر العدل، أما في مسألة العذاب غير المحدود على الذنب المحدود فوقعت عدة إشكالات، أولا الاستدلال بالقرآن الكريم على أن الكافر لو عاد للدنيا لعاد إلى كفره لذا كان العذاب غير محدود وهذا استدلال بالقرآن على من لا يؤمن به!، ثانيا أراد المؤلف جمع صفة الرحمة مع العدل في مسألة تعذيب الكافر في النار فنقل قول ابن عربي (إن الرحمة بالنسبة لهؤلاء أنهم سوف يتعودون على النار، وتصبح تلك النار في الآباد المؤبدة بيئتهم الملائمة)انتهى ، وهذا أولا أمر خبري لا دليل عليه بل يناقض أدلة القرآن الكريم والسنة الصحيحة في ديمومة شعور الكافر بالعذاب، وثانيا هو يفرغ العقاب الأخروي من مضمونه ومن مهابته، وأضاف الكاتب في ذات السياق أن هناك مجانسة بين النفوس التي تشتعل بنار الحقد والغل والشهوة وغيرها وبين النار، وأنها بذلك لا تستطيع العيش في سلام ولو دخلت الجنة لما تذوقتها وبالتالي احتج بذلك أن النار بيئتها المناسبة، ويقال في هذا ما قيل في نقل ابن عربي. وفي نفس السياق أضاف المؤلف توصيف (التأديب والتعليم) للنار بجانب توصيف (العقاب العادل) ، وساوى بين العذاب النار الخالد وبين (العذاب الأدنى) المذكور في قوله تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)) سورة السجدة، وهذا أيضا خلط في ذاته وباب إشكال للمناظر ، فالعذاب الأدنى التأديبي التعليمي يكون بعده فرصة للرجوع كما جاء في الآية ، أما العذاب الخالد فكيف يمكن وصفه بذلك ومساواته بالعذاب الأدنى في الدنيا وبالتالي بكونه رحمة لا انتقام وعقاب! أما الاستدلال بآلام الدنيا ونقائصها على إمكانية التعذيب في الآخرة ، فهذا خروج عن محل البحث ، إذ أن الملحد هنا لا ينكر إمكانية التعذيب إنما ينكر اتساقه مع صفات الرحمة والعلو ، وهو من البداية أصلا يحتج على المؤلف بمسألة وجود الشر والآلام في الدنيا ، فلا يمكن الاحتجاج بوجود الشر في الدنيا على إمكانية التعذيب في الآخرة، فهنا خلل في الهدف وفي الدليل أيضا.

س	الدين أفيون الشعوب ليقنعهم أن فقرهم قدر فلا يطالبون بحقوقهم ولا يقاومون الظلم.
ج	1- الدين في حقيقته تبعات وتكاليف وليس تخففا وتحللا كي يوصف بالأفيون، بل المادية المنكرة للدين المنسلخة من أي التزام وتكليف أولى بهذا الوصف. 2- الزكاة الواجبة والصدقات المستحبة جعلت للفقير مكانة وحقوقا. 3- الإسلام ثورة على الظلم والظالمين لا تثبيتا لهم. 4- التفاوت لم ينعدم في أي بلد مسلم أو غير مسلم حتى في البلاد الشيوعية لأنه ضرورة حياتية ناتجة عن الاختلاف الطبيعي بين الناس وإمكانياتهم وإنما غاية المساواة أن تتكافئ الفرص وليس المساواة الكاملة بين الناس. 5- التنوع ضروري لاستمرار الحياة كما هو مشاهد ومعقول. 6- أمر الدين بالمساواة والعدل واحترام الفرد ودمه وماله وحريته ونهى عن الغوغائية وتملق الدهماء والجري وراء الأكثرية. 7- سحب ما وقع في أوروبا بين العصور الوسطى وعصر التقدم على الإسلام خاطئ لوجود اختلاف كبير بين الإسلام والمسيحية الكنسية المحرفة.
ت	من النقاط الجيدة المتكاملة في الكتاب التي لم أقف فيها على ملحوظات تذكر ، مع ملاحظة أنها تناسب النقاش مع الربوبيين أكثر ، أما الملحد فلا ينبغي الانتقال معه لمناقشة أهمية الدين قبل الانتهاء من مسألة وجود الإله الخالق ابتداء.

س	شبهات حول المرأة ، التعدد، بقاء المرأة في البيت والحجاب والطلاق بيد الرجل ، والهجر والضرب والقوامة وملك اليمين والميراث.
ج	1- التعدد مقيد بقيد يجعله شبه معطل إلا للأنبياء والأولياء وهو في كل حال أفضل من الزنا. 2- الأمر في البقاء في البيت موجه لأمهات المؤمنين كقدوة لأن هذا الأصل والأنفع للأطفال والمجتمع مع عدم منع المرأة من الخروج والعمل حسب ما تقتضيه الحاجة. 3- الحجاب يزيد الحاجة للمرأة والشوق لها بخلاف المجتمعات التي ينتشر فيها العري والإباحية. 4- حق الرجل في الطلاق يقابله حق الرجل في الخلع. 5- الضرب والهجر للناشز يوافقه علم النفس الحديث الذي أثبت وجود حالات لا يصلحها إلا هذا. 6- الإسلام هو الدين الوحيد الذي دعا لتصفية الرق، ولم يحرمه فورا لأنه سيسبب كارثة اجتماعية ، ونهى عن أخذ الأسرى أرقاء واستبدل ذلك بالمن أو الفداء مما يجعل التصفية حاصلة مع الوقت بلا شك، وفي طريق التصفية أمر بحسن المعاملة.
ت	قارن المؤلف رحمه الله في مسألة التعدد بحال المشركين قبل الإسلام في البغاء وكذلك بحال الغرب في العصر الحالي في الزنا والانحلال وتعدد العشيقات ليعقب بأنه قطعا تعدد الزوجات سيكون أفضل من هذا الحال، ولكن هذا يسهل التعقيب عليه من المخالف بأن ما يفعله الآخرون من تعدد في العلاقات الجنسية خطأ في ذاته، والأولى أن يعالجه الإسلام لا أن يقننه وحسب، لذا لعله كان من الأولى هنا تناول الفرق بين فطرة الرجل وفطرة المرأة وتباين الاحتياجات والاستدلال

على ذلك علميا واجتماعيا، كما ذكر المؤلف أن قوله تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ) يعني استحالة القدرة ولو مع الحرص وبالتالي استحالة تحقيق شرط التعدد إلا في حالات نادرة كالأنبياء والأولياء ، نازعا نفي الاستطاعة من سياقه الذي يوضح معناه (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)) سورة النساء ، في حين أن معنى الآية مرتبط بالميل القلبي وعدم القدرة على العدل فيه وأن التكليف في الآية هنا هو عدم انعكاس هذا على السلوك العملي وليس ترك التعدد لأجل هذه العلة كما جاء في تفسير ابن كثير وغيره.

وفي مسألة الحجاب أرى أن اقتصار المؤلف على الاستدلال العقلي بأن الحجاب يحفظ المجتمع من الفتور العاطفي ويحفظ للمرأة جاذبيتها لم يكن موفقا ، فهي نقطة يمكن الاستدلال بها ولكن لا يكتفى بها ، بل يقدم عليها عقليا ما جاء في القرآن الكريم أن الحجاب يحفظ المرأة نفسها من أشقياء المجتمع وأذاهم ، (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)) سورة الأحزاب، وكذلك أثر ذلك في حماية أصحاب العفة من خطوات الافتتان والتي ستؤذي النساء والرجال على سواء.

اعتمد المؤلف في مسألة الهجر والضرب على استدلالات نسبت إلى علم النفس وهو ما لم يمكن للباحث التعليق عليه تفصيليا لعدم إحاطته به ، ولكن أيضا الاقتصار على الاستدلال بنظريات علم النفس الحديثة أراه ليس كافيا ، لأن مسألة كتلك لم تكن بلا رد قبل النظريات النفسية الحديثة، كما أن ذكر حدود الضرب المسموح أصلا في الشريعة غاية في الأهمية وهو ما لم يذكره المؤلف ، وعدم ذكره مع ذكر الـMasochism والـSadism ودعوى توافق القرآن معهما قد يعطي فهما أكثر خطئا عن تشريع الضرب في الإسلام، فالمصابون بتلك الأمراض – سواء الأول أو الثاني- لا يسعدهم الضرب غير المبرح الذي ذكره النبي ﷺ ولن يجدوا فيه تلبية لرغباتهم النفسية المختلة –نسأل الله العافية - ، كما أن هذه الأمراض تصيب الرجال والنساء على سواء ولم يشرع بسببها ضرب الزوج مثلا أو هجره.

ذكر المؤلف رحمه الله أن الإسلام كان أول دين دعا إلى تصفية الرق، وأنه لم يحرمه قولا واحدا لما في ذلك من أضرار آنية على المجتمع ستتضاعف فيها البطالة وتضطرب أحواله الاقتصادية ، فأغلق باب الرق الجديد مطلقا وفتح أبواب تصفية الموجود، واستدل على غلق باب الرق بقوله تعالى (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) سورة محمد.

ولا شك أن الإسلام قد حجّم كثيرا من أبواب الرق ولكنه لم يشرع تصفيته بالكامل (فضاءات الحرية ص 189) ، كما أن الاستدلال بآية سورة محمد على أن الإسلام حرم الاسترقاق في الحرب مع إهمال سائر أدلة الباب ومنها السنة العملية للنبي محمد ﷺ وأصحابه خطأ استدلالي، فقد بقت العلة المبيحة للاسترقاق هي الكفر والمقاتلة (فضاءات الحرية ص186).

	لذلك فيمكن القول إجمالا أن الرد في هذه الجزئية كان جيدا في بعض النقاط ولكن شاب بعضها أيضا اضطرابا واختصارا في غير محله كما تبين.

س	شبهات حول وجود الروح و ما الدليل على البعث في ظل عدم عودة أي ميت ليخبرنا عما رآه، وماذا عن تحضير الأرواح
ج	1- الكلام حول طبيعتي الإنسان وجود سلوكيات وصفات لا ترتبط بالطبيعة المادية المحدودة للإنسان تثبت وجود طبيعة أخرى له، وساق أمثلة وأدلة عقلية وحسية. 2- الحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها، وما كنا لندرك حركة ومرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة خارجة عن المرور الزمني (أي على عتبة الخلود). 3- ظواهر الوجود كله تشير إلى أن هناك عود على بدء كالليل والنهار وفصول السنة. 4- إحكام الكون الشديد والفطرة يمنع تصور عدم تحقق العدل وهروب الظالم ، وبالتالي عدم تحقق العدل الكامل هنا رغم هذا الإحكام وهذه الفطرة المتحرية للعدل يعكس وجود يوم يبعث فيه الناس ليتحقق هذا العدل. 5- تحضير الأرواح عندنا أصلا مشكوك فيه.
ت	كان ردود المؤلف في هذا الموضوع الدقيق عقلانية واضحة في رأيي، ربما عدا الثانية والتي لا أجزم أنني فهمتها جيدا ، كما رد على النقطة الأخيرة (تحضير الأرواح) بمنع المقدمة نفسها إذ أننا لا نؤمن بإمكانية ذلك ولا دليل على أن ما يحضر في مثل هذه الجلسات هي الروح المطلوبة فعلا.

س	لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد ، فهذا منطقي أكثر من القول بنزول ملك لا يرى يوحي إليه ، لا سيما في زماننا.
ج	1- هذا الزمان تزداد فيه إمكانية تصور وجود ملاك لا يرى بعدما اكتشفنا الكثير من الأشياء المؤثرة التي لا ترى، بل هذا أيسر في التصديق من بعض ما وصلنا إليه الآن. 2- النظر في القرآن الكريم وحروفه ومعانيه يجعل من المستحيل القول بأنه من تأليف محمد ﷺ ، ومن صور ذلك عدم انعكاس أحداث جسيمة في حياة النبي فيه ، وجود العتاب ومراجعة النبي ﷺ في بعض أفعاله ، انفراد العبارة القرآنية وعدم وجود سابق لها يشبهها (لا نثر ولا شعر) ، الدقة البلاغية الشديدة في انتقاء الألفاظ والحروف. 3- إثبات القرآن الكريم لكروية الأرض بآية الزمر والنازعات ومرور الجبال وآيات أخرى. 4- اتفاق آية الذاريات (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)) مع نظرية الكون المتمدد. 5- كلام القرآن الكريم عن وجود ما هو أصغر من الذرة في وقت لم يكتشف فيه الذرة أصلا، آيات تكوين الإنسان والجنين ودلالة بعضها على أن النوع يعتمد على الوالد ، آية بيت العنكبوت ، إعجاز التمر في ولادة مريم للمسيح عليه السلام، زيادة التقويم الهجري عن الميلادي بتسع سنوات في قصة الكهف. 6- تحقق نبوءات القرآن المتعددة، كانتصار الروم وانتصار بدر وعمران مكة باكتشاف البترول والغنى عن العيلة المذكورة

في سورة التوبة ، كلام القرآن عن الغيب المطلسم للجن والملائكة الذي لم يكشف إلا لقلة من أهل التصوف، بجانب الكمال التشريعي الشمولي.

7- رد بعض أمثلة مزعومة لتناقضات في القرآن الكريم سببها عدم فهم اللفظ من خلال السياق.

ت

يمكن تقسيم هذا الموضوع إلى شقين، الأول هو الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم مع أدلة استحالة نسبته إلى مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم لعوامل شخصية وواقعية، والثاني هو ما يمكن وصفه بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم واستحالة نسبته أيضا إلى مُحَمَّد ﷺ من منطلق عدم علمه ولا علم أيا من أهل الأرض حينها بتلك الحقائق والنظريات العلمية.

أما الشق الأول فقد كان تناوله جيدا ومتكاملا إلى حد كبير ، ويلتقي في نقاطه مع العديد من النقاط التي تناولها الدكتور مُحَمَّد عبد الله دراز في كتابه القيّم (النبأ العظيم).

أما الشق الثاني ففيه بعض الملحوظات من وجهة نظري:

أولا: رجح المؤلف رحمه الله دلالة الآيات القرآنية على مسألة كروية الأرض بشكل جازم ولم يذكر خلافا في المسألة ولكن جاء ضمن الاستدلالات قوله تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)) سورة يونس، فجزم المؤلف أن الإهلاك المقصود هنا (أتاها أمرنا) هو يوم القيامة ، وأن قوله تعالى (ليلا أو نهارا) يدل أن وقت وقوع القيامة والتي ستكون في الأرض كلها في وقت واحد سيكون هناك ليل ونهار في وقت واحد ، وهذا يدل على كروية الأرض ، وفي رأيي أن في هذا تكلّف شديد في تأويل الآية ، إذ أن الإهلاك أولا ليس مقصودا به القيامة وحدها بل ما دون ذلك من العذاب ، وذكر الليل والنهار هنا لا يقصد به حدوثهما معا بالضرورة وإنما قدرة الله تعالى على ذلك في أي وقت، وقد تكرر المعنى في آيات أخرى منها قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51)) سورة يونس ،(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)) سورة الأعراف.

ثانيا: ذكر المؤلف الإعجاز العلمي في كلام القرآن عما هو أصغر من الذرة في وقت كان الذرة تعرف في هذا الحين بأنها أصغر مثقال وأنها جوهر فرد لا ينقسم، وذكر قوله تعالى (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3)) سورة سبأ، في حين أن الذرة في مفهوم العرب حينها لم تكن بالمعنى العلمي الحديث كي يقال أن حديث القرآن الكريم عما هو أصغر من الذرة يعني ذكره لمكوناتها التي اكتشفت حديثا ، ففي تفسير البغوي لقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) (والذرّة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذرّ أجزاء الهباء في الكُوّة وكل جزء منها ذرّة ولا يكون لها وزن، وهذا مثلٌ، يريد: إن الله لا يظلم شيئًا، كما قال في آية أخرى: "إن الله لا يظلم الناس شيئا) انتهى.

	ثالثا: وضع في سياق الإعجاز أن القرآن الكريم تكلم عن غيب الملائكة والجن وهو ما تكشف بعضه لقلة من المتصوفين فإذا رأوا وطالعوا فهم لا يرون إلا ما يوافق كلمة القرآن ولا يطالعون إلا ما يوافق أسراره. والحقيقة أن غيب الملائكة والجن من الغيوب التي لا يقال أنها قد كشفت بأقوال بعض المتصوفة أو غيرهم ، فتنبوء القرآن الكريم بشيء من باب الإعجاز ثم ظهوره للناس كالأمور المستقبلية مثلا يكون فيه الأمر ظاهرا للجميع وليس لخاصة منهم ، أما كلام بعض المتصوفة –كما يذكر المؤلف– لمطالعة شيء من عالم الملائكة والجن فهو يظل خبرا من أفراد عاديين يصدق أو يكذب ، وربما يتعارض تصديقه مع بعض الآيات التي ذكرت عدم قدرة البشر عموما على رؤية الملائكة والجن لا سيما في هيئاتهم الحقيقية، وإن كنت لا أجزم بهذا التعارض لقلة علمي في المسألة ، ولكن ما أشير إليه أن وضع نقطة كهذه في سياق الإعجاز القرآني تعد نقطة ضعف. هذه نقاط وجدت لدي تعليق واضح عليها ولا يعني سكوتي عن بقيتها إقراري بكل ما فيها ولكن توقفي لعلمي بمدى شائكية مسألة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مع قلة علمي فيها.

س	مخالفة الدين لنظرية التطور ، فالدين يتكلم عن خلق الإنسان من الطين بطريقة (جلا جلا) والعلم أثبت خلاف ذلك.
ج	1- الله لم يخلق الإنسان مباشرة من الطين بطريقة (جلا جلا) كما تقول ، ولكن خلقه من مراحل وأطوار بينها أزمنة مديدة، فلم يخرج من الطين مباشرة بنفخ الروح فيه ، بل من سلالة من طين، بدأت بالخلق والتصوير ثم التسوية ثم النفخ ، و(ثم) بالمعنى الإلهي تعني ملايين السنين ، فآدم نهاية سلسلة من الأطوار وليس بدء مطلقا على طريقة (جلا جلا) ، وذكر آيات من سورة المؤمنون والإنسان ونوح والأعراف وص والسجدة. 2- (والله أنبتكم من الأرض نباتا) فهو إنبات بكل ما في النبات من أطوار ولكن اللغز الحقيقي ما هي تلك المراحل بالضبط ، هل تولدت من الطين خلية واحدة نتج عنها كل الأحياء من نبات وحيوان وإنسان ، أم أنه كانت هناك بدايات متعددة. 3- التشابه التشريحي لا يرجح احتمال الاتفاق في الخلية الأولى بالضرورة ولكن يدل على أن الخالق واحد. 4- من معارضات النظرية أنها قائمة على أن البقاء للأقوى في حين أن البقاء يحدث أيضا للأجمل وإن لم يكن أقوى ، بل وجود الجمال في حد ذاته لا معنى له في ظل النظرية المادية لأنه لا فرق فيها بين جناح ملون وجناح أبيض طالما للأثنين نفس القوة. 5- وكذلك فرضية الطفرات العشوائية التي قيل أنها كانت سبيل الارتقاء لا تتناسب مع الإحكام والإتقان الموجود ، فالطفرة العشوائية قد تكون للأفضل أو للأسوأ ، لكن الواقع أن لكل مخلوق صفاته وآلياته التي يحتاجها لاستمرار حياته بإحكام شديد وصولا للنباتات المفترسة التي تنصب الشراك لفرائسها ، بأي عقل تخطط لهذا! (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى). 6- عاد المؤلف لمسألة أطوار ما قبل آدم وكونها لغزا وإلى قوله تعالى (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

	وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9)) سورة السجدة، وقال إن معنى الآية صريح في أن البدايات الأولى للإنسان التي جاء منها آدم (فيما بعد) كانت بلا سمع ولا بصر ولا أفئدة، وإنما جاء السمع والبصر والأفئدة بعد نفخ الروح وهي آخر مراحل خلق آدم ، إذن فالبدايات أشبه بالحياة الحيوانية المتخلفة (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1)) سورة الإنسان ، وهو تفسير لا يختلف عن العلوم التي تتحدث عنها – موجها الكلام لمناظره الملحد – ولكن الآية تحتمل أن يكون المقصود مراحل الجنين ، فالآية القرآنية مشتبهة والقرآن يحتمل أكثر من وجه في التفسير والحقيقة لا تزال لغزا. 7- ثم انتهى المؤلف بعد مزيد تفصيل في مفهوم التسوية إلى أن أفضل فهم لنظرية التطور هي أنها تطوير بفعل فاعل وبذات مبدعة خلاقة وليس تلقائيا أو متروكا للصدفة كما تصورها دارون وصحبه.
ت	لعل هذه النقطة من أكثر نقاط الكتاب اضطرابا ، ليس لأن المؤلف يتوافق فيها مع نظرية التطور الموجه ولكن لأن حتى البناء الاستدلالي للوصول لهذه النتيجة متخبط نوعا ما ، حتى أنني احتجت لمراجعة كتاب آخر للمؤلف بعنوان (العلمانية ودارون والباندا) لاستوثق أكثر من موقفه من نظرية التطور وإدعاء مخالفتها للإسلام أو نقضها للنص القرآني عن الخلق إذ أنني لم أجد في طرحه هنا وضوحا كافيا وتسلسلا مرتبا، وقد تبين لي فعلا أن المؤلف رحمه الله يميل بقوة للتطور الموجه ولكن المشكلة في الأدلة أكثر منها في النتيجة، وفيما يلي بعض الملحوظات لتبيين وجهة نظري. أولا: عرض الكاتب أدلة التطور والتي انحصرت بقوة – حسب طرحه – في التشابه التشريحي الكبير بين الكائنات الحية ، ثم ذكر بوضوح أن هذا إما يعني أنها تطورت من خلية واحدة (بتوجيه من خالق عليم) ، أو أن البدايات متعددة هذا التشابه فقط دليل على أن الخالق واحد ، وهما احتمالان متكافئان – في كل المخلوقات عدا الإنسان لوجود النص القطعي فيه – ثم مال إلى التطور الموجه دون ذكر دليل زائد ، فحدث ما يمكن وصفه بأنه ترجيح بلا مرجح. ثانيا: انتقد المؤلف نظرية دارون في أمور رئيسية مثل احتياجها إلى الطفرات العشوائية التي تنافي الإتقان العام المشاهد في الكون والمخلوقات الحية، وأن الانتخاب الطبيعي يكون بمبدأ البقاء للأقوى أو للأصلح في حين أن الأجمل أيضا يبقى رغم عدم تفوقه في القوة أو الصلاحية، هذا كله بجانب النقطة السابقة مما يعني وجود ما يرجح خطأ النظرية من أساسها ومع ذلك ورغم تجريد النظرية من أدواتها مال إليها في النهاية وحاول تفسيرها قرآنيا. ثالثا: أوّل المؤلف الآية القرآنية في سورة السجدة تأويلا بعيدا يصرف الآية عن ظاهرها بلا صارف ليستنتج بذلك احتمال الآية لمعنى التطور بجانب معنى تطور الجنين في الرحم، وفسر كلمة (ثم) في الآية بملايين السنين بلا دليل ، فحتى ما ذكره في قوله تعالى (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)) سورة الحج؛ ليس فيه ما يدل بالضرورة على أن كلمة (ثم) في آية السجدة تعني ملايين السنين! لم يجزم الكاتب بأن هذا المعنى هو الراجح في الآية ولكن جعله وجها معتبرا وذكر أن القرآن يحتمل أكثر من تفسير دون ذكر ضوابط هذه التفاسير ومتى تكون معتبرة وهي ثغرة أخرى للمخالف، وأيضا رجح أن التسوية المذكورة للإنسان في القرآن الكريم في أكثر من موضع كانت بالهندسة الوراثية ولم يقدم دليلا

واضحا على ذلك، وفسر قوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1)) بأن (عدم الذكر) يعني السلالة الطينية ثم سلالة من ماء مهين استمرت ملايين السنين قبل التصوير والتسوية ثم النفخ بالروح وخلق السمع والأبصار والأفئدة وأنه كان أشبه فيها بالحيوانات المتخلفة، وهنا مشكلتان ، الأولى كيف يوصف الإنسان بالحيوان وبالتناسل والتطور قبل نفخ الروح وشق السمع والأبصار وخلق الأفئدة! والثانية ما الصارف الذي يصرف تفسير الآية عن المعنى القريب وهو (العدم كما في تفسير الطبري والسعدي أو الطينة المصورة بلا روح كما في تفسير الطبري والبغوي) إلى تلك المعاني البعيدة! ، وكذلك في قوله تعالى (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)) سورة نوح. رابعا: انتقى المؤلف الآيات المذكورة عاليا ووضح لها احتمالات تفسيرية بعيدة لدعم فكرة التطور الموجه وترك آيات أكثر قطعية لا تحتمل أي تأويل كقوله تعالى (نَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)) سورة آل عمران ، (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)) سورة النساء، (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)) سورة التين ، هذا بجانب الأحاديث النبوية الصحيحة مما لا يسع سرده هنا ، وهذا انتقاء من أدلة الباب الواحد وهو خطأ استدلالي كبير. وليس المقصود هنا مناقشة نظرية التطور الموجه نفسها فهذا مما لا يتسع له البحث وإنما أردت الإشارة إلى بعض الإشكالات في استدلالات المؤلف في هذا الباب وهذا ضار جدا عند مناقشة أصحاب الشبهات أو المتأثرين بها، وقد فصل الأستاذ عمرو عبد العزيز في مناقشة نظرية التطور الموجه وأدلة مؤيديه ومناقشتها في كتابه (الداوريننمية) أو (الدارونية المتأسلمة) وهو مما قرأ منذ فترة ثم أعيد مطالعته أجزاء منه أثناء إعداد هذا البحث.	

س	شبهة حول الحروف المقطعة في بدايات سور القرآن الكريم وأنها بلا معنى وتطعن في صحة القرآن الكريم.
ج	اعتمد المؤلف في إثبات إعجازها وعدم عشوائيتها على دراسة للدكتور رشاد خليفة عن كون كل سور تبدأ بمثل هذه الحروف تكثر فيها تلك الحروف أكثر من غيرها ويكون عدد تكرار الحرف الأول منها في السورة أكثر من تكرار الحرف الثاني والثاني أكثر من الثالث وهكذا، واستحالة أن يكون هذا من تدبير مؤلف بشري.
ت	وعلى غرار مناقشة المؤلف رحمه الله مسألة (ضرب المرأة وهجرها في المضاجع) بذكر النظريات العلمية الحديثة في تفسير ذلك دون مجرد المرور على أصول المسألة شرعا ، كان التعليق على الحروف المقطعة في أوائل السور معتمد على معين واحد وهو دراسة حديثة كما ذكر عاليا، وعقب عليها بأن صاحبها نفسه اختل وأدعى النبوة ومات مقتولا (وأغلق ملف الأسرار للأبد) حسب تعبير المؤلف ، وهذا يوهن عملية المناظرة جدا ، إذ يظهر أن الأمة بقت 1400 عام قبل هذه الدراسة الفردية المعتمدة على الذكاء الألكتروني الإحصائي لا تدري شيئا وليس لها معتقد في هذه الحروف وإعجازها ، وأنها عادت لما بدأت بعد ضلال ومقتل صاحب الدراسة ، والأولى أن تذكر تفاسير الصحابة والسلف والأئمة لهذه الحروف كأساس ثم تذكر مثل هذه الدراسات كاستئناس، فلا يرتبط إعجاز القرآن فيها بعمل اجتهادي حديث يحتمل الصواب والخطأ.

س	شبهة حول المعجزات وكونها تخالف العقل لخرقها قوانين الكون.
ج	استدل المؤلف بأن المخترعات التي نستخدمها اليوم وصارت عادية لنا كانت تمثل منذ آلاف السنين إعجازا كاملا وخرقا للقوانين بالنسبة لأهل تلك الأزمنة، في حين أنها عمليا ليست خرقا للقوانين ، وبالتالي في المعجزات لا تخرق قوانين الكون ولكنها تتبع قوانين أعلى لا نعرفها والمعجزة تطلعنا عليها لا تهدم النظام ، فنحن في زمان لم تعد تستغرب فيه المعجزات.
ت	في هذه النقطة جاء رد المؤلف كشبهة أصلا يلقيها بعض الملحدين والربوبيين ضد الأديان ، فهم ينكرون إمكان التحقق من وجود معجزة لأنها قد لا تكون انخرام للقانون الكوني ولكن ناتجة عن سبب طبيعي لا نعلمه، وبالتالي هي لا تحتاج قدرة استثنائية خارجة عن قدرات الإنسان تثبت أن خالق الكون والقوانين هو من أرسل النبي صاحب المعجزة فعلا. (ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، الجزء الثاني ص 356). فلو سلم المخالف للمؤلف في الرد وأقر بإمكان حدوث معجزة موافقة لتعريف المؤلف فستكون النتيجة إنكار دلالة المعجزة على صدق النبي الذي جرت على يديه، لأن الأمر ليس فيه خرق للقوانين الكونية، لذلك فهذه النقطة لا يمكن مناقشتها إلا لمن سلم ابتداء أن هذا الكون الحادث المتقن لابد له من خالق، والقادر على خلق هذا الكون وقوانينه قادر على إحداث ما يخالفها استثناء دون أن يؤثر على مسار الحركة والحياة فيه، أما من يرى إمكان حدوث الكون وقوانينه أصلا بلا خالق فطبيعي أن يكذب بالمعجزة ودلالتها لا سيما إن قيل له أنها لا تخرق أصلا قوانين الكون.

ملاحظات عامة حول الكتاب

أولا: ما يفتقد وينتقد

ليس مطلوبا بالتأكيد من كل مؤلف أن يحتوي كتابه على كل ما يخص الموضوع لا سيما إن كان الموضوع متسع ومتعدد المحتوى كموضوع الإلحاد ، لذلك عادة ما يلجأ المؤلفون لتحديد بعض المسائل المتعلقة بالموضوع الرئيسي والتصنيف فيها تحت عنوان خاص يدل عليها، أما إذا أطلق العنوان وتعلق بالموضوع الرئيسي فبطبيعة الحال يتطلع القارئ للإطلاع على جل الخطوط العريضة له لا سيما أن الكتاب وإن كان مسمى بـ (حوار مع صديقي الملحد) فهو في الحقيقة لا يقص حوارا حقيقيا ينقله المؤلف كما هو نقلا صحفيا يلتزم فيه بما جاء في اللقاء ولكن الصديق افتراضي والمؤلف هو من انتقى الأسئلة والموضوعات التي سيناقشها وكيف سيناقشها ، لذلك أفتقد ما يلي وانتقد غيابه:

1- طرح الأدلة العقلية والفطرية بل والعلمية التجريبية بشكل مكتمل على وجود الله ودفع شيء من الشبهات حولها كما كان في سؤال (من خلق الله؟) فهو لا يمثل الشبهة الوحيدة حول السببية ،كان هناك المزيد مما ينبغي تقديمه كأساس للحوار مع أي ملحد في كتاب سيعد مرجعا شعبيا بحكم شعبية مؤلفه ومكانته.

2- افتقد التفصيل في مواطن كان ينبغي التفصيل فيها والاختصار فيها يخل كثيرا بالمحتوى، وقد علقت على بعضها في خلال مناقشة الكتاب ولم أعلق على كل ما كان فيه الاختصار زائدا عن الحد.

3- افتقد الترتيب المناسب للموضوعات الذي يراعي تدرج أهميته وترابطها واعتماديتها على بعضها البعض ، فالأمر بدا فعلا وكأنها أسئلة في ندوة على الهواء مباشرة يسأل فيها أناس مختلفون أسئلة مختلفة وعشوائية غير مترابطة وهذا تفريغ لها ، بل لو فرض أن هذا حقيقي ، فعند التصنيف كان من الأفضل إعادة الترتيب بشكل مناسب.

ثانيا: ما يفتقد ولا ينتقد

ربما يفتقد القارئ في كتاب كهذا مؤلفه ذو خلفية علمية تجريبية المزيد من المناقشة حول الدعاوى العلمية للملحدين المعاصرين، وقد لاحظت انتقادات للكتاب على الانترنت من هذا النوع ، فينتقدون عدم تناوله لكثير من النظريات العلمية التي تستخدم في مهاجمة الأديان ، بل وكتب أحدهم أين هو من كتاب (وهم الإله) لريتشارد دوكنز ، وفي الحقيقة هذه تعليقات ظالمة ، فالكتاب صدرت طبعته الأولى عام 1986 ميلاديا ، في حين أن كتاب دوكنز صدر عام 2006 ، وكذلك الكثير من الأطروحات الإلحادية التي توصف بالعلمية وبالتجريبية جاءت متأخرة عن تاريخ صدور الكتاب، فهنا ينبغي التنبيه إلى أن هناك فرق بين وصف كتاب ما بأنه جيد أو غير جيد ، وبين وصفه بأنه مناسب للمرحلة الحالية أم أنه فقد تناسبه معها لأمور خارجة كاستحداث أمور لم تكن موجودة وقت تصنيف الكتاب، فقد نفتقد فيه أشياء نحتاجها ولكن لا تنتقد عليه لأنها لم تظهر أو تنتشر إلا بعد تصنيف الكتاب.

خلاصة واستنتاج

في ظل ما تقدم يتبين أن الكتاب محل البحث قد جمع عددا من المميزات والعيوب وهذا هو شأن أي عمل بشري ولكن يبقى تقدير وزن المميزات والعيوب والذي من خلاله يحكم إجمالا على مدى إمكانية استخدام الكتاب كمرجع في بابه وترشيحه للآخرين، وهي موازنة قد تختلف من تقدير شخص لآخر ، وفي تقدير مقدم البحث أن الكتاب رغم ما فيه من فوائد ورغم سهولة أسلوبه التي لا تتوفر في كتب كثيرة تناقش هذا المجال الشائك فإنه لا يناسب المبتدئ وصاحب الشبهات وأن ما قد يتركه من اضطراب في ذهنه وأفكاره كبير للأسف مقارنة بما سيفيده فيه، وإنما قد يناسب الكتاب من اتخذ خطوات مسبقة في هذا الطريق فيستفيد من لطائفه وإضافاته دون التأثر بمشاكله وعيوبه.

كما تبين أنه يجب مراعاة طبيعة مجال الشبهات أثناء ترشيح المراجع والكتب الخاصة به ، فمجال مثل مناظرات الملحدين يعتمد فيه الملحدون بنسبة كبيرة على طرح نظريات علمية – غثة وسمينة – يزعمون أنها تثبت عدم وجود الإله، وهذه الطريقة لها أثر كبير لا سيما في أوساط غير المتخصصين والمنبهرين بالعالم المتقدم تقنيا، وبالتالي تحتاج إلى مصنفات تحدّث باستمرار لتحتوي مناقشة كل دعوى جديدة تطرح ، مما يجعل كتب الأمس غير مناسبة في كل النقاط لدعاوى الغد ، هنالك نقاط مشتركة دائمة تطرح من مئات السنين ولكن هناك أيضا نقاط ديناميكية، فإذا رشحت كتابا قديما لا يتناول مثل هذه النقاط الديناميكية سيظن صاحب الحيرة والشك أنها تركت عن عجز في حين أنها أصلا لم تكن مطروحة عندما صُنف الكتاب، فنرى تعليقات كالتي ذُكرت عاليا تتهم الكتاب وربما كل المؤمنين بالعجز عن الرد.

مراجع

1- تفسير القرآن العظيم ، الإمام ابن كثير ، نسخة الموسوعة الشاملة.
2- الجامع لأحكام القرآن ، الإمام القرطبي، نسخة الموسوعة الشاملة.
3- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، طبعة دار الحديث.
4- معالم التنزيل في تفسير القرآن، الإمام البغوي ، نسخة الموسوعة الشاملة.
5- فضاءات الحرية، سلطان بن عبد الرحمن العميري ، المركز العربي للدراسات الإنسانية.
6- ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، سلطان بن عبد الرحمن العميري، تكوين للدراسات والأبحاث.
7- الداروينمية، عمرو عبد العزيز ، دار القمري.
8- العلمانية ودارون والباندا ، د.مصطفى محمود، الراية للنشر والتوزيع.
9- شموع النهار، عبد الله بن صالح العجيري، تكوين للدراسات والأبحاث.